الفصل الرابع

فلسطين على طريق الإمبراطورية

لم يذهب مجهود آشلى هباءً بعد. فكانت هناك فكرة سياسية فى لب خطته، رغم أن الشكل الذى أراده لها يفتقد المعقولية إلى حد ما. وخلال الإثارة التى أحدثتها اقتراحاته، أصبح الشعب البريطانى تدريجيًا يدرك المميزات الاستراتيجية التى سيكتسبها عند وجود نفوذ له فى الشرق الأوسط. حملة ناپوليون وانتصار نيلسون فى النيل والتاريخ الخيالى لصعود وهبوط محمد على والانتصار الرائع لـ «پالمرستون» فى الأزمة السورية والآمال الوهمية التى أثارها الهوس التبشيرى فى تنصير اليهود، ووجود أبرشية فى القدس، تضافرت كل هذه الأحداث المتركزة حول الأرض المقدسة لتخلق شعورًا خاصًا ومستحوذًا حول فلسطين. أصبحت فكرة وجود بريطانى هناك - خلال وسيط ترعاه بريطانيا، وهو استعادة إسرائيل - تروق لعقول أخرى غير آشلى. ولكن أتباعه رغم ذلك أكدوا بشدة أن البراهين الاستراتيجية التى أضافها تفتقر إلى الحماس القلبى بالنسبة للأهداف الدينية القديمة.

وقد كان أكثر خلفاء آشلى بعدًا للنظر وإحساسًا بالقضية هو الكولونيل تشارلز هنرى تشرشل، حفيد دوق مارلبورو (وبذلك كان أحد أسلاف وينستون تشرشل) والذى كان أيضًا ضابطًا بالجيش الذى أطاح بمحمد على. لقد كان تشرشل منهمكًا فى فكرته حينما تم وضعه فى دمشق فى الوقت الذى ثارت فيه ضجة كبيرة حول القتل

العرقى وزيارة «مونيتفيور»، وكان تشرشل هو الشخص الذى أرسل له مونيتفيور فرمان السلطان لسنة ١٨٤٠م عن تمثيل الجالية اليهودية فى دمشق. واعترافًا بمساعدة تشرشل فى قضيتهم خلال عام الرعب، فقد أقام يهود دمشق مأدبة تكريم له مع ضحايا الاتهام بالقتل الأربع عشرة الذين خرجوا من السجن للتو. وكانت خطبته فى هذه المناسبة، أو خطابه الذى أرسله لاحقًا إلى مونيتفيور على وجه التحديد، بمثابة تغير فى الرؤية التبشيرية، من الهراء إلى وجهة نظر أكثر واقعية. **لقد كان يبدو أنه مهتم بعودة اليهود من أجلهم هم وليس من أجل كونهم أدوات لتحقيق النبوءة، ولم يذكر أبدًا أن تنصير اليهود شرط مسبق أو مقدمة طبيعية لعودتهم إلى جبل صهيون. وقد قال ليهود دمشق: إنه يأمل أن تكون ساعة تحرير إسرائيل تقترب، وأن تحتل الأمة اليهودية مكانتها بين قوى العالم مرة أخرى. وأضاف أن انجلترا هى الدولة الوحيدة المشجعة للآمال اليهودية.**

وبعد ذلك، وفى خطاب أرسله إلى مونيتفيور بتاريخ ١٤ يونيو ١٨٤١م، أوضح تشرشل النقطة التى طالما غابت عن الجميع حتى الآن، وهى أن «اليهود هم الذين يجب أن يصنعوا بدايتهم». لقد كتب قائلاً: «لا يمكننى أن أخفى عليك رغبتى الشديدة فى أن أرى أبناء بلدتك يسعون لاستعادة وجودهم كشعب مرة أخرى. وأعتقد أن الهدف يمكن الحصول عليه بالتمام. ولكن هناك شيئان ضروريان لا يمكن الاستغناء عنهما: **أولاً أن اليهود أنفسهم بالإجماع هم الذين يجب**

عليهم أن يبدأوا الأمر، وثانيًا أن القوى الأوروبية يجب أن تساعدهم فى تحقيق أهدافهم».

لقد أثار حقيقة ثانية بعد ذلك، وهى المغالطة الكبرى فى سياسة بريطانيا فى تأييد الإمبراطورية التركية، وهى السياسة التى أصابت ديبلوماسية بريطانيا بالوباء عبر القرن التاسع عشر. وقد تنبأ تشرشل أن جهود بريطانيا فى هذا الصدد محكوم عليها «بالفشل الذريع»، فإن سوريا وفلسطين يجب حمايتهما من ذلك «الحكم الاستبدادى المتخبط والمتداعى» لدى الأتراك والمصريين، ويجب وضعهما تحت الحماية الأوروبية، وعندما يأتى ذلك اليوم يجب أن يكون اليهود مستعدين وقادرين على أن يقولوا: «نحن بالفعل نشعر أننا شعب». لقد حث تشرشل بحماس، مونتيفيور كرئيس لمجلس النواب اليهودى، الذين هم قادة المجتمع اليهودى بلندن، على أن يبدأ تحريك العجلة فى ذلك «**الكفاح المجيد من أجل الوجود القومى**»، وأن يحث النواب على أن يجتمعوا ويتناقشوا ويتحركوا.

وفى خطاب ثانٍ له بعد عام، اتبع تشرشل فكرة آشلى فى شأن الضمان البريطانى لحقوق اليهود، واقترح أن يلتمس يهود انجلترا والقارة كلها من الحكومة البريطانية أن تعين مفوضًا مقيمًا فى سوريا لمراقبة مصالح اليهود المقيمين هناك وأمن ممتلكاتهم، ومن ثم تشجيع الاستعمار اليهودى «**تحت رعاية وإقرار بريطانيا العظمى**».

فاقت هذه الخطوة شجاعة النواب، فهم يمكنهم التحرك لصالح اليهود المنكوبين والمضطهدين فى حالات مثل حادثة دمشق، ولكنهم كانوا مهتمين أكثر بالكفاح من أجل تحقيق تحرير أهليهم فى وطنهم بريطانيا، ولم يكونوا ينظرون لأبعد من ذلك فى قضية القومية اليهودية. وبعد سنوات، كلما أصبحوا أكثر تحررًا، كلما قل حبهم بالطبع لفكرة القومية فى أى صورة من صورها (مع بعض الاستثناءات الجديرة بالذكر). وفى عام ١٨٤٢م لم يستطع حتى مونتيفيور نفسه تحريكهم، حيث تبنى المجلس قرارًا يتأسف على أنه «**حِيل بينه وبين إنشاء أى إجراءات لحمل وجهات نظر الكولونيل المحسن تشرشل محمل التنفيذ**».

وأضافوا أن يهود أوروبا الشرقية والشرق الأدنى سيكون عليهم أن يقوموا بتوضيح أهدافهم قبل أن يغامر يهود بريطانيا بأى خطوة تأييد. ورد تشرشل قائلاً: إنهم ربما سيكون عليهم «السعى للتحقق من مشاعر وآمال اليهود فى باقى أوروبا فى مثل هذه المسألة المثيرة والمهمة» وهى «الاستعادة المنتظرة» لبلدهم ولكن لا يوجد دليل على أن الاقتراح قد لاقى قبولاً لدى المجلس.

لم ينصت يهود الغرب للاقتراح، ولم يستمع إليه يهود الشرق من خلف أسوار أحيائهم اليهودية، ولم يكن لدى تشرشل ذلك الإصغاء الذى كان لدى وزير الخارجية، أو الفرصة لتوجيه سياسة الدولة على مائدة العشاء

كما فعل آشلى. ففى الحقيقة خلال النصف قرن، أو بعد الخطوة الافتتاحية التى قام بها آشلى وپالمرستون سنة ١٨٤٠م، لم يكن هناك مؤيدون فى الدوائر العليا لقضية استعادة إسرائيل عدا آشلى نفسه. لقد استطاع أن يستمر فى صعود قمم مناصب العصر الڤيكتورى على مدى خمسين عامًا أخرى تقريبًا. لم يتخلَ عن القضية قط، بل عبّر عنها أحسن تعبير قبل وفاته بقليل. لقد ظلت علاقته مع پالمرستون - الذى عاد سريعًا إلى وزارة الخارجية واستمر لمدة عشر سنوات كرئيس للوزراء - علاقة حميمة كما كانت من قبل، ولكن كلاهما كان منهمكًا فى أمور أكبر خلال تلك السنوات. على أى حال فإن ذروة الحماس التبشيرى لتنصير اليهود قد انتهت آنذاك، وبانتهائها أصبح الدافع الخاص لدى شافتسبرى فى غير مكانه.

لقد كان المؤيدون الجدد لاستعادة إسرائيل أكثر اهتمامًا بعلاقتها بتقدم بريطانيا الاستعمارى تجاه الشرق عن علاقتها بتقدمها الروحانى تجاه السماء. وقد كتب الكولونيل تشرشل فى كتابه «جبل لبنان»: «**يجب أن يكون واضحًا لكل عقل إنجليزى، أنه للحفاظ على التفوق الإنجليزى فى الشرق، يجب أن يطول نفوذنا - بشكل أو بآخر - سوريا ومصر**». لقد كان الكتاب نتاج إقامته فى الشرق الأوسط لمدة خمسة عشر عامًا، وتم طبعه سنة ١٨٥٣م أى قبل حرب «الكريميان» بعام، حينما كان التذمر العام فى الشرق يترجم كالعادة كمؤشر لسقوط الإمبراطورية التركية.

وقد تنبأ تشرشل (تنبؤًا صحيحًا رغم أنه سابق لأوانه) أنه حينما تكون فلسطين غير تركية يجب أن تصبح إما إنجليزية أو دولة مستقلة. وقد جعله الأمل يصيح على الطريقة «الآشلية» البليغة قائلاً: **«إنها أرض عظمة يعقوب وقوة إسماعيل ومزمار داود وسلالة إشعياء وعقيدة إبراهيم وحب عمانوئيل، والتى بدأت فيها معجزات الله مع الإنسان والتى سوف يتم فيها تحقيقها بعد زمن طويل. إن هذه الأرض تناشد حقوق الحماية اليقظة والاهتمام المتعاطف والرعاية من بريطانيا»**. لم يكن صوت تشرشل هو الوحيد الذى ينادى بتلك الحماية للمصير اليهودى فى فلسطين، فقد عاد الرحالة واربيرتون من رحلته فى الشرق، ولم يخفق فى إظهار هذه النقطة. وفى عام ١٨٤٤م أصبح الجميع يقرأون كتابه «الهلال والصليب» والذى مر بسبع عشرة طبعة على مر البضع وأربعين سنة اللاحقة. يلخص الكتاب تجربة أجيال من الحجيج للأرض المقدسة، ويقول المؤلف إنه وجد فيهم «نوعًا من الوطنية لفلسطين». لقد أثار الكتاب العواطف بذكره لأسماء الأماكن الفلسطينية المألوفة لدى الآذان منذ الطفولة، والإثارة فى أنه تم استقباله بواسطة «شيوخ على طراز النبى إبراهيم والذين يحتفلون به على المائدة التى كانت توضع أمام الملائكة».

ولكن هذا لم يخف عن ذلك الرحالة اليقظ، حقيقة أن خطى إبراهيم تشير إلى ما يسمى أقصر طريق إلى الهند، المكان الذى لم

تستطع الحروب الصليبية أن تنشئ موطئ قدم فيه، «فإن مصالح الهند ربما تجلب ما لم يجلبه قبر المسيح». وحيث إنه يعترف بحساسية ذلك الموضوع، فكان الكاتب يمر عليه مسرعًا إلى مواضيع أخرى، فقط ليعود إليه مرة أخرى. وفى كل مكان فى رحلاته -كما يقول- فإنه كان يرى فيه توقع قدوم انجلترا إلى الشرق. وحينما يموت الباشا العجوز «المعتوه» محمد على يجب على انجلترا ألا تسمح لمصر بأن تعود إلى «طاغية الباب العالى العثمانى الأبله». ولكنها يجب عليها «أن تؤكد بجرأة» حقها فى طريق عبر مصر إلى الهند، وأن تجلب للبلد «الحرية للشعب» (وهذه عبارة حينما يستخدمها كاتب إنجليزى فإنها تعنى الحرية من الأتراك).

لم يلحظ واربيرتون فى اليهود إمكانية كونهم خطوة مسبقة للاحتلال البريطانى، ولكن اللورد «لينـد سـاى» الذى سبقه ببضع سنوات، والذى أوحى كتابه لـ «آشلى» بكتابة مقاله الجديد والأول من نوعه فى جريدة «كوارترلى ريفيو» اقترب أكثر من هذه النقطة. وحيث إنه كان يسير «على خطى الإسرائيليين نحو الأرض الموعودة»، وحيث إنه ينتابه «سرور عجيب ومثير» كلما أعاد قراءة خريطة البحر الأحمر، متخيلاً دولة إسرائيل أمام عينيه، وحين كان يخيّم ليلاً فى الصحراء، أو يدق وتدًا فى خيمته كان دائم التفكير فى مستقبل الشعب المختار.

لقد كان مقتنعًا أن عقم واضمحلال أرض فلسطين لم يكن بسبب لعنة أصابت الأرض، ولكن ببساطة بسبب «عدم وجود سكانها القدامى».

وكان يؤمن بأن إرادة الله هى التى شاءت «ألا يكون السكان الحاليون كثيرى العدد على الإطلاق» حتى لا يعوقوا عودة «الورثة الشرعيين»، وكان يؤمن أن الأرض التى كانت خصبة من قبل «تنتظر فقط عودة أولادها المنفيين، وتطبيق الصناعة التى تناسب قدراتها الزراعية حتى تنطلق مرة أخرى لتكون فى حالة رخاء وترف تام، وتعود كما كانت دائمًا أيام النبى سليمان».

وتعد السيدة «فرانسيس إجيرتون - Lady Francis Egerton» رحالة مغامرة أخرى وجدت نفسها مستشعرة بفضول نحو أحوال شعب الله القديم، حينما كانت تتجول فى البلد، وترى فى كل جانب صورًا حية لـ «موسى» و«إيليا». وكانت تدخل بيوتًا ومعابد يهودية فى القدس بدافع الفضول، تسأل أسئلة مبشرى لندن وتناقش اضطهادات دمشق ونظريات العودة. لقد كانت تلاحظ باستمرار ذلك الشعور الذى تم ذكره فى كتب كثيرة جدًا عن الرحلات فى ذلك الوقت، وكان ذلك الشعور هو أن تلك الأوقات هى أوقات «حاسمة» وأن هناك شيئًا ما فوق العادة على وشك الحدوث، ومرتبط بشكل غامض وبطريقة ما بتحقيق النبوءة الموعودة إلى جبل صهيون. لقد كانت السيدة فرانسيس تعلق ذلك على التوقع العام لانهيار الإمبراطورية العثمانية، والاعتقاد بأن الفراغ الناتج عن ذلك فى فلسطين سوف يملأ بعودة اليهود. وكانت تجد رغم ذلك أن الانطباع السائد فى انجلترا عن

«اندفاع أفواج» اليهود إلى فلسطين شيئًا خياليًا، وكان رأيها أن اليهود لن يعودوا أبدًا قبل أن يتم تنصيرهم، لقد كان كتابها -كما تقول- مجرد مذكرات خاصة بها، وقد تم نشره عام ١٨٤١م بناءً على توسل وإلحاح أصدقاء لصالح جمعية مدرسة سيدات أيرلندا، ووجد الكتاب طريقه إلى منضدة حجرة نوم البارون المتملق «بونسين».

لقد أثبت التقرير عن الموت المنتظر للإمبراطورية التركية، والذى بدا وشيكًا فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، أنه خبر مبالغ فيه للغاية؛ حيث إن غيبوبتها ظلت مزمنة لمدة سبعين سنة أخرى. ولكن كان يعتقد فى ذلك الوقت أن الأرض المقدسة ستكون متاحة لملكية جديدة. وأنه ليس هناك شىء أكثر طبيعية وملاءمة من عودة المستأجر القديم مع مالك أرض جديد! لقد راقت الفكرة لمجموعة من العقول الإنجليزية. وقد كتب «د. توماس كلارك - Dr. Thomas Clark» فى رسالة له بعنوان «الهند وفلسطين» أو «رؤية عودة اليهود فى ظل العلاقة بأقصر طريق إلى الهند»: **«لو تمت إزاحة القوة التركية، سوف يتم إعادة فتح الطريق التجارى القديم». واستمر قائلاً: «إن اليهود أساسًا شعب تجارى، وهل هناك شىء أكثر طبيعية من أنهم يجب أن يتم ترسيخهم على طول الطريق العام العظيم للتجارة القديمة؟ ... وهل توجد أيد أكثر مهارة يمكن وضع التبادل التجارى بين الغرب والشرق فيها ؟.. ستكون سوريا فى أمان فقط وهى فى أيدى أناس شجعان وأحرار ومتدينين ومشبعين بعاطفة**

القومية إلى حد كبير.. ومثل هؤلاء الناس نجدهم فى اليهود... فقط أعد إليهم قوميتهم وبلدهم مرة أخرى، ولن توجد قوة على وجه الأرض تستطيع أخذها منهم».

وتم نشر كتيب مشابه سنة ١٨٤٤م بعنوان «مقال دينى للعصور .. التماس لليهود» للكاهن «صموئيل أ. بردشو - Sumuel A Brad-show» اقترح فيه أن البرلمان يجب أن يمنح أربعة ملايين جنيه وأن تجمع الكنائس مليونًا آخر وذلك لعودة إسرائيل. وفى نفس العام انعقدت لجنة فى لندن بهدف إنشاء «الجمعية البريطانية والخارجية من أجل تعزيز عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين». ورغم أن الجمعية فى ميلادها إلا أنه من المثير أن نلاحظ أن الخطاب الافتتاحى الذى ألقاه رئيس الجمعية المبجل «ت. تولى كريباس» قد حث على **«أن تضمن انجلترا من تركيا التنازل عن فلسطين بأكملها، من الفرات إلى النيل ومن المتوسط إلى الصحراء»**. يا للأفكار الكريمة التى كانت لدى الرجال الإنجليز فى تلك الأيام عن تلك المنطقة التى يجب إعادتها إلى ملاكها القدامى، رغم أن فلسطين آنذاك كانت فى ملكية آخرين!

ماذا كان فى ذهن السيد كريباس حينما تحدث عن المنطقة من النيل إلى الفرات؟ بالطبع هو ذلك المفهوم الأصلى للأرض الموعودة التى تم وضع حدودها فى ذلك اليوم عندما قطع الرب مع إبرام ميثاق قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات (سفر التكوين ١٥: ١٨).

كانت تلك الأرض هى أرض كنعان القديمة، الأرض التى وعدها الرب ثانية لموسى ثم مرة أخرى ليوشع. لقد كان الرب واضحًا تمامًا. كان على القبائل [الأسباط] الاثنتى عشرة أن يطردوا الكنعانيين والحيثيين و... و... **و«كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى، من البرية [صحراء سيناء] ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات» (سفر يشوع الإصحاح الأول: ٣).**

وفى الحقيقة فإن مملكتى «يهوذا» و«إسرائيل» اللتين تم إنشاؤهما لم يحتلا مكانًا آخر غير هذه المنطقة. لقد توسعا من دان إلى «بير شبعه»(*)، ومن البحر المتوسط إلى شرق الأردن. وهذه هى المنطقة التى كانت تعتبر فلسطين، وظلت هى التصور العام لفلسطين حتى جاءت القوانين والتفويضات وبدأت فى تمزيقها. وكانت فلسطين بالنسبة لأجدادنا البسطاء هى ببساطة أرضًا عهد الله بها إلى «إسرائيل»، ولم يفكروا أو يلقوا بالاً لولد إبراهيم الآخر وهو إسماعيل. يا للرعد الفيكتورى المدوى الذى كان سيحتاج كلاً من السيد المبجل «كريباس» واللورد «شافتسبرى» لو أنهما عاشا حتى ١٩٢٢م ليريا كل فلسطين شرق الأردن تم اقتطاعها لصالح الأبناء العرب لإسماعيل! ويا للحظات انفجار البلاغة التى كانت ستلقى على

(*) بير سبع.

أثر الخطة التقسيمية التى تركت إسرائيل بدون(*) «الخليل» حيث تم دفن إبراهام، وبدون «شيلوح - Shiloh» حيث تم وضع «تابوت العهد»، وبدون «دوثان» حيث تم بيع يوسف، وبدون «بيت الله» حيث حلم يعقوب، وبدون «أريحا» حيث انتصر يشوع، وبدون «بيت لحم»، ويا للصمت البغيض الذى كان سينتج كرد فعل على اقتراح أفضل عقول الأمم المتحدة بوجود دولة يهودية رائعة ولكن بدون أورشليم!

بالطبع فإن أجدادنا عاشوا فى جهل سعيد عن الثروة الموجودة تحت قشرة الصحراء، والسائل الذى تفوق قيمته حتى ذلك الماء الذى تدفق من الصحراء لينقذ «هاجر» وابنها المحتضر «إسماعيل». ربما كان ذلك التدفق المائى الأسطورى عبارة عن فأل يبشر بما سيحدث. على أى حال، فإن ولد «هاجر»، والذى يتمثل الآن فى دول جامعة الدول العربية، يحتل الآن خارج فلسطين مساحة ضعف مساحة الإرث اليهودى بفلسطين، بالإضافة إلى قطعة كبيرة من فلسطين نفسها أيضاً.

ولنعد مرة أخرى إلى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، فهناك حدث كبير فى ذلك الوقت، بجانب الانهيار المتوقع للباب العالى

(*) تتحسر المؤلفة فى أسى عن إقامة إسرائيل على الأرض العربية عام ١٩٤٨م دون أن تضم فى حدودها - حسب تقسيم الأمم المتحدة - ما ذكرته. وقد طُبع هذا الكتاب بالإنجليزية أول مرة عام ١٩٥٦م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٤م، ثم عام ٢٠٠١م. وقد ماتت المؤلفة عام ١٩٨٩م.

العثمانى، قد جعل الشرق الأوسط منطقة ضرورية للغاية من أجل السيطرة على الطريق إلى الهند. وكان ذلك الحدث هو الإبحار بطاقة البخار. لقد أصبحت البواخر تعتمد على موانئ متعددة من أجل إعادة التزويد بالفحم، وبالتالى استخدمت الطريق المشترك بين البحر المتوسط والأحمر فى التنقل بين سفينة إلى أخرى بين البحرين فى السويس (حيث إن قناة السويس لم تكن حُفرت بعد) بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقيا. وفى عهد ١٨٤٠م أنتجت شركة (P&O) باخرة تسير من انجلترا إلى الهند عن طريق البحر الأحمر. وهذه أيضًا تم استخدامها من قبل مؤيدى إعادة إسرائيل لتأييد وجهة نظرهم؛ ففى ١٨٤٥م اقترح «إ.ل ميتفورد» من «الخدمة المدنية السيلانية - Ceylon Civil Service » **إعادة بناء الوطن اليهودى فى فلسطين كدولة محمية تحت وصاية بريطانيا العظمى**. وبين المميزات التى «لا تحصى» التى تنبأ بها ميتفورد هى أن مثل هذه الدولة سوف «تضع إدارة الاتصال الملاحى فى أيدينا تمامًا». وكان يعتقد أيضًا أن هذه الدولة سوف «تضعنا فى الموقف المسيطر (فى الشام)، ومن ثم يمكننا كبح عمليات التعدى هناك وإرهاب الأعداء وردعهم وإيقاف تقدمهم إذا لزم الأمر».

وجاء مسئول آخر من مكان آخر من الإمبراطورية البريطانية، وهو الكولونيل چورچ جاولر الحاكم السابق لجنوب استراليا، وقدم خطة تفصيلية لتحقيق نفس الهدف. لقد حث هو أيضًا على الاستيطان

اليهودى فى سوريا لمنع تطفل أى قوة أجنبية أخرى. وكان يقول: **«انجلترا تحتاج بشدة إلى أقصر وآمن خطوط الاتصالات.. إن مصر وسوريا يمثلان طرق مواصلات رئيسية، ووجود أى قوة كبرى معادية فى إحداهما سوف يهدد التجارة البريطانية فى الحال.. وعلى انجلترا الآن أن تتحرك لإحياء سوريا على أيدى الأناس الوحيدين الذين ستتركز طاقاتهم على نحو واسع النطاق ومستمر فى العمل، وهم أبناء الأرض الحقيقيون - أبناء إسرائيل»**. ومثل الكولونيل تشرشل فإن جاولر كان يعود مرارًا وتكرارًا إلى أطروحته ليحث بها كل الأطراف. لقد تعرف جاولر على مونتيفيور واصطحبه فى عملية مسح الأراضى فى فلسطين سنة ١٨٤٩م. وفاق جاولر شافتسبرى الذى لم يكن مهتمًا بناحية الإنفاق المالى من قبل الدولة الضامنة، **وقال إن على القوى الكبرى تقديم المساعدة المادية لخطة تعويض اليهود عن المعاملة التى تعرضوا لها. وقد حث اليهود على التحرك بسرعة والظهور على إثر سقوط تركيا والمطالبة «بجرأة وبقوة» بحقهم فى فلسطين، مع ملاحظة أن «هذا الإرث ينتمى إلى رب إسرائيل وإلى شعبه القومى»، وحثهم أيضًا فى النهاية على «أن يتمسكوا بإرثهم على جبال إسرائيل»**.

والحقيقة الجديرة بالذكر هى أن رجال الدين ورجال الجيش العسكريين أو **«رجال الكتاب المقدس ورجال السيف»** كانوا أهم المسيطرين على هذه المناقشات حول عودة إسرائيل إلى فلسطين. حتى

إن مذكرات السيدة فين تكلمت فيها عن المصالح العسكرية فى المنطقة! فى عـام ١٨٥٨م رست سفـينة حربيـة بريطانية فى يافـا وعلى متنـها مجمـوعة شخصيـات متميزة. لقـد كان الأمير ألفـريد الابن الأصغر للملكة الذى كان يبلغ من العـمر أربعة عشـر عامًا على ظهر السـفينة كطالب عسكرى وكـان يرافقه مـعلمه الميچـور كاويل، وقائد السـفينة الكابتن تارلتون، فى رحلة أقامـتها عائلة فين. **وتتذكر السـيدة فين أنها طوال الطريـق إلى بيت لحم كـانـت تتناقش مع كلٍّ مـن الميـچـور كـاويل والكابتن (وكلاهمـا كان على علم واسع بالكتاب المقدس) حـول التنبؤات عن مستقبل هذه الأرض واليهود.**

لم يذكر شيئًا عن الميچور والكابتن غير ذلك، وفى نفس الوقت فإن كلاً من القنصل والسيدة فـين استمر فى طريق شافتسـبرى التقليدى فى هذا الشأن، وظلا يبذلان جهودًا محلية من أجل تمكين اليهود من غرس أنفسـهم فى أرضهم. لقـد حاولت عائلة فين مـثل مونتـيفيـور أن تبدأ المشـروع من الوضع القائم حـاليًـا، وهو الجاليـة اليـهودية القـديمة فى القدس. **كانت الجالية عبارة عن حـوالى أربعة آلاف من أبناء اليهود الإسپان الذين تم طردهم فى عام ١٤٩٢م(*)، وسمح لهم سليمان الأكبر «بالاستقرار فى القدس «سـفارديم - Sephardim» وتتكون أيضًا مـن حوالى ثلاثة آلاف يهودى من «الأشكيناز- Ashkenaz» وهم مكافحون فقراء من وسط أوروپا،**

(*) عندما انتـصر الكاثوليك على المسلمين فى إسپـانيا، وضعوا اليـهود والمسلمين بين خيارين: إما التنصر، وإما الطرد - المترجم.

أتوا إلى القدس لتوطيد جذورهم على جبل صهيون(*). ولكنهم غرقوا بشكل كبير فى حالة «فقر ميئوس منها» بسبب رفض السكان المحليين تشغيلهم من ناحية، وبسبب الديكتاتورية الجبرية التى قيدتهم بحالة تشبه حالات الأقليات اليهودية فى القرون الوسطى من ناحية أخرى. ورغم تلك الصعوبة فقد استطاعت عائلة فين التى كرست نفسها لتنصير اليهود أن تحرز تقدمًا طفيفًا. لقد كانوا فى غاية اللباقة، **حتى إن السيدة فين تقول: إنها كانت حريصة على أن تخفى الصليب عن نظر المرضعة اليهودية التى أحضرتها لأطفالها؛ حيث إنها كانت متفهمة لمشاعر أصدقائنا اليهود تجاه الموضوع. ولكن كيف كانت فى نفس الوقت تؤمن تمامًا وتتوقع أن إسرائيل يومًا ما ستحقق الشروط الإلهية؟ فهذه مفارقة ظاهرية لن أحاول تفسيرها. أيًا كان السبب، فإنه جعلهم مقتنعين- على حد قول السيدة فين- أن هذا العمل سوف يتقدم وأن الأرض المقدسة سوف يسكنها ملاكها الشرعيون مرة أخرى، وهم الأمة العبرية، وسوف تتفتح كالزهرة مرة أخرى.**

وقد مضوا قدمًا على هذا الأساس. لقد قاموا بتنظيم مشاريع عمل، ليس فقط لمنح اليهود العاطلين فرص عمل مربحة، ولكن أيضًا للمضى قدمًا فى استصلاح الأرض. لقد تم استئجار الأرض اللازمة لإقامة مشروع رى، رغم أن النتائج كانت يرثى لها؛ حيث إن

(*) ولن يكون بعيدًا عن الحقيقة أن نستنتج أن هؤلاء اليهود الأوروبيين قد هاجروا من أوروبا بسبب اضطهادهم إلى أرض فلسطين، كما فعل أولئك اليهود الإسبان - المترجم.

المستفيدين من المشروع ضعفاء جدّا لدرجة أنهم لا يستطيعون قطع ذلك الميل سيراً إلى الحقل. ووصل السيد ساندفورد، وهو جراح إنجليزى وواحد من المجموعة الضئيلة المساعدة لعائلة فين إلى اكتشاف أن ارتفاع معدل الوفيات بين اليهود كان «أساسًا بسبب افتقارهم للغذاء». **ولو أنهم قبلوا العمل لدى غير اليهود سوف يتبرأ منهم الحاخامات.** ولكن عائلة فين ظلت مثابرة. وكتبت السيدة فين رسائل متواصلة للوطن فى محاولة منها للحث على وجود مساعدة مادية من بريطانيا لليهود. **ولكن من المحبط أنها وجدت أن القليل من البريطانيين كانوا مقتنعين أن «اليهود سوف ينجحون أو أن الأرض المقدسة تستحق الاستصلاح».**

ولكن رغم ذلك، فقد وجدت من المقتنعين ما يكفى لتمويل شراء قطعة أرض، أطلق عليها اسم «حقل كرم إبراهام»، ولكن لم يتم إنجاز الكثير فى ذلك الشأن غير التخفيف المؤقت لآلام أكثر اليهود فقراً. ورغم ذلك فإنهم ظلوا مثابرين لسنوات، واستمرت «جمعية تعزيز العمل الزراعى اليهودى» التى أنشأوها فى ذلك الوقت فى الوجود بأسماء مختلفة، آخرها جمعية «الانتداب».

وظل القنصل فين طوال وجوده فى القدس يعمل من أجل مصلحة اليهود. **ففى عام ١٨٤٩م حث مكتب وزارة الخارجية على أن يمنحه قوات لحماية كل اليهود الروس الموجودين فى فلسطين، فى الوقت الذى نبذتهم**

فيه الحكومة الروسية نفسها. وكان دائمًا على استعداد لجعل الباشا يقوم بتطبيق الحقوق اليهودية بالقوة والتعامل مع أى حالة اضطهاد ضد اليهود. وقد نجح ذات مرة فى جعل جندى تركى ينال عقابه وتوبيخه علنًا أمام الموقع العسكرى بأكمله؛ وذلك بسبب الإهانة التى ارتكبها ضد يهودى فقير منذ أربعة عشر شهرًا، مما «أدهش السكان اليهود على حد كبير». وحاول القنصل فين سنة ١٨٥٧م مرة أخرى إحياء خطة شافتسبرى القديمة وتمريرها إلى وزير الخارجية التالى، إيرل كلارينـدون، وقدم له خطة تفصيلية «كى يقنع عددًا كبيرًا من اليهود على الاستقرار هنا كمزارعين على الأرض... بالمشاركة مع الفلاحين العرب». ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار ما تعنيه كلمة «يقنع» فإن الوقت لم يحن بعد؛ حيث إن الإرادة المطلوبة لم تكن موجودة بين يهود أوروبا بعد.

بينما كانت تلك الإرادة فى طريقها، كانت هناك أيضًا شخصية فى انجلترا تعد لدور يؤدى إلى تمكين الإمبراطورية البريطانية من حدود فلسطين. وكان يقال إنه لم يوجد أحد سوى اللورد شافتسبرى يمكنه فرض سياسة بين مؤيدى القرن التاسع عشر لسيادة إسرائيل المسيحية على أرض فلسطين، ولكن هناك استثناء بارز واحد، وهو أكثر الشخصيات إثارة فى التاريخ الإنجليزى، وبالطبع فإن هذه الشخصية هى «ديزرائيلى - Deisraeli». ورغم أنه لم تكن له علاقة بموضوع عودة إسرائيل، فإنه من السخيف حذفه من القصة مثل سخافة حذف

الشبح من مسرحية «هاملت». ولكن فى ضوء علاقته بذلك الشأن، وفى ضوء علاقته بعصره وبلده، فإنه رجل يتحدى كل تصنيف. لقد كان الوحيد الذى لم يكن أساسًا رجل دين بين الڤيكتوريين البارزين. فقد هجر اليهودية ولم تؤثر فيه المسيحية التى اعتنقها من أجل النفعية، ولم تعن له النبوءة شيئًا. ومع ذلك فقد شعر بإيمان قديم الأزل تجاه فلسطين لا يمكن تفسيره. لقد كتب بعاطفة جياشة فى «ألروى» عن إحياء مملكة إسرائيل، ولكنه لم يأخذ خطوة سياسية واحدة تجاه تحقيقها(*). لم يلحظ «ديزرائيلى» اقتراحات مدرسة شافتسبرى وتشرشل، ولم يساهم فى مشاريع مونتيفيور، ولا ينتمى لليهود المؤمنين بالقومية؛ لأن قوميته هو كانت مستقلة وفريدة. لقد كان صوت تراث إسرائيل وليس مصيرها. لقد كان مهتمًا بديون العالم تجاه اليهود، وليس مستقبل اليهود فى العالم.

لقد كان يسأل أعضاء المجلس فى مناقشة حول تحرير اليهود قائلاً: «أين مسيحيتكم إن لم تؤمنوا بيهوديتهم؟» ويستطرد قائلاً: «عند مذبح كل كنيسة نجد الشريعة اليهودية. كل المسيحيين الأوائل كانوا يهودًا.. كل مَن بشر بالمسيحية ونشرها كان يهوديًا.. إذا لم تنسوا ما تدينون به لذلك الشعب.. فعليكم - كمسيحيين - أن تكونوا على أتم استعداد لانتهاز أول فرصة للاستجابة لطلبات أولئك الذين يعتنقون اليهودية». لقد خاطر

(*) نختلف اختلافًا كاملاً مع الكاتبة القديرة فى هذا، ولعل ما سيجىء فى الفقرات القادمة للكاتبة يناقض هذا - المترجم.

بمستقبله السياسى بإلقاء هذا الحديث(*). مع أنه كان عضواً فى المجلس، يعتمد على زملائه المتقدمين عليه فى الحزب، **فكان على الرغم من ذلك الوحيد فى حزب المحافظين الذى يتحدث فى صالح المشروع، وفى كل عام يعرض فيه مشروع القانون على المجلس كان يذهب إلى جانب الليبراليين ليصوت لصالح مشروع القانون ضد حزبه.**

أظهر الفخر بجنسه وتراثه اليهودى، وكرر ذلك فى رواياته، وفى مقدمات الطبعات الأخيرة منها، وفى الفصل الشهير عن اليهود الذى ظهر فجأة وسط السيرة الذاتية السياسية للورد «چورچ بينتينك» كتب قائلاً: «**لقد اكتشف العالم فى ذلك الوقت أنه من المستحيل تدمير اليهود.. وأن محاولة صد قوانين الطبيعة الثابتة التى تقر أن الجنس السامى لن يدمر أبداً ولن يستعبد بجنس أقل منه مرتبة، ستكون محاولة دون جدوى**». **لقد كان يؤمن مثل ماثيو أرنولد أن قوة وعزم انجلترا مشتقة من القوانين الأخلاقية للعبرانيين التى انتقلت إلى الإنجليز عن طريق الكتاب المقدس، وكان يقول إن انجلترا «رغم نظامها اللاهوتى الناقص والضئيل ظلت دائمًا تتذكر صهيون»**.

الخلاصة أن «ديزرائيلى» ساهم فى التقدم البريطانى نحو فلسطين، ليس لكونه يهودياً على الإطلاق، بل كصانع إمبراطورية. فقد كان يشعر بإغراء نحو الإمبراطورية البريطانية أكثر من فلسطين. لقد تم

(*) هل هناك ما يفعله ديزرائيلى أكثر من ذلك لليهود؟ - المترجم.

توسع بريطانيا من الشرق خلال القرن التاسع عشر تحت توجيهه، بل

كان من صنعه. ففى الماضى توقف ريتشارد قلب الأسد ليأخذ قبرص فى طريقه إلى الأرض المقدسة. وحينما أعاد ديزرائيلى قبرص لبريطانيا سنة ١٨٧٨م أدرك أن القضايا التنظيمية للإمبراطورية سوف تجعل فلسطين هى الخطوة التالية، **وبشرائه لقناة السويس جعل هذه الخطوة محتومة.**

ولكن كل ذلك كان لا يزال سابقًا لأوانه فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وكان ديزرائيلى عضو البرلمان حديث العهد، مشهورًا برواياته الأنيقة وقوته المريبة التى جعلت أعضاء المجلس يدركون بعدم ارتياح، أن البطة الصغيرة الموجودة بينهم سيأتى عليها اليوم وتصبح نسرًا. وفى عام ١٨٣١م كان «ديزرائيلى» فى رحلة من اليونان لمصر، وكان كل مكان توقف عنده بمثابة مشهد للمجد القديم، وكل يوم فى رحلته بمثابة أثر للطريق الإمبريالى فى الماضى. «الأكروبول» باليونان والأهرامات بمصر وآثار الإسكندر وقيصر ومحمد على وجنود الحملات الصليبية، وفوق كل ذلك المقابر، و«المعبد» المحطم الخاص بجنسه، كلها كانت تتوهج مثل جواهر التاج فى ذهنه. وقد كان له لقاء رسمى مع السلطان فى القسطنطينية، ومع الباشا محمد على فى الإسكندرية. وأبحر من قبرص إلى سوريا مارًا بكل من بيروت وعكا إلى يافا، ثم فى النهاية امتطى التلال المهجورة الخربة وهو مدجج

بالسلاح ومزود بالشاحنات حتى وصل إلى المدينة التى أمعن النظر فيها وهى «أورشليم».

وكانت الأيام التالية من أبهج أيام حياته. فقد تذكر هناك كل الأمجاد المتراكمة للماضى، وكل الحنين للقرون النائية. لقد قضى فى القدس أسبوعًا فقط، ولكنه قبل رحيله قد بدأ بالفعل فى كتابة رواية عن «الحادثة الرائعة فى سجلات تاريخ الشعب المقدس العاطفى، الذى انتمى إليه دمًا واسمًا. وتلك الحادثة كانت الثورة اليهودية التى قادها المسيح الزائف «ديڤيد ألروى» «أمير العبودية». ضد خليفة بغداد فى القرن الثانى عشر. غالبًا ما كان أبطال «ديزرائيلى» لهم علاقة بالسيرة الذاتية، ومن الصعب ألا ترى فى «ألروى» انعكاسات ذات طابع السيرة الذاتية، تشير إلى الحلم الداخلى.

فى هذه الرواية يقول الحكيم اليهودى مجيبًا: «... ماذا أريد؟ ... الوجود القومى الذى لا نملكه... ماذا أريد؟ ... أرض الميعاد ... ماذا أريد؟ ... القدس... ماذا أريد؟ المعبد... ماذا أريد؟ كل ما خسرناه ... كل ما تطلعنا له... كل ما حاربنا من أجله ... بلادنا الجميلة .. عقيدتنا المقدسة ... أخلاقنا البسيطة وعاداتنا القديمة...».

لقد كتب «ديزرائيلى» ذلك الكلام بإحساس صادق وقوى، وعلى عكس النثر المنمق الذى يملأ باقى صفحات «ألروى»، والمزخرف بكلام عن المشغولات الحريرية والسيوف المعقوفة والحكّام والمتآمرين وينابيع

الزئبق والأميرات المثيرات، فإن هذا النص بالتحديد يمكن تمييزه بسهولة. يقول المؤلف نفسه: إن رواية ألروى تمثل «حلمه النموذجى». وإنه من الغريب حقًا لو أن «ديزرائيلى» الشاب لم يحلم أنه شخصيًا ربما يكون مقدر له أن يعيد القومية لشعب اليهود، خاصة لما كان لديه من فخر بجنسه وطموح ملتهب، وأنه يقف وسط الأماكن المحيطة الرفيعة التى كان يحكمها أجداده.

ولو كان «ديزرائيلى» قد حلم بذلك، فإن حقائق سياسات انجلترا التالية تتماشى مع حلمه. فبعد أربع سنوات دخل «ديزرائيلى» البرلمان عاقدًا العزم على أن يكون رئيسًا للوزراء وليس أقل من ذلك. ويقول اللورد «فليبورن» عن ذلك: والله إن الرجل سيفعلها قريبًا، وعندما نشر روايته الشرقية «تانكرد» فإنها أوضحت أنه على طريق تحقيق هدفه، وأنه لم يعد مهتمًا بمملكة إسرائيل بل بإمبراطورية انجلترا. لقد عزم أن يناقش فى هذه الرواية بحث «انجلترا الحديثة» عن الإحياء الدينى. وكان بطل الرواية هو شابًا فاترًا، ابنًا لدوق، وقد ترك انجلترا مسرعًا إلى القدس ليخترق «اللغز الآسيوى». ولكن كلاً من البطل والمؤلف سرعان ما نسى كل شىء عن ذلك وانغمس فى السياسات المتخبطة فى الشرق الأوسط، والسؤال العام عن كيفية سيطرة انجلترا على الطريق إلى الهند. لقد كانت الأزمة السورية ما زالت ساخنة، ولم تكن التيارات المندفعة التى أثارتها دعوة محمد على لوجود سيادة عربية قد

هدأت بهزيمته بعد. ومن الغريب أن «ديزرائيلى» كان يرى أن فرصة انجلترا بين العرب أفضل من فرصتها فى قضية القومية اليهودية. وبشكل شبه تهكمى وببعد نظر غالبًا ما كان رائعًا فقد كان «ديزرائيلى» يتصور الاحتمالات.

وعلى لسان «فخر الدين» أمير لبنان وهو سورى ماكر وطموح، وديانته الوحيدة هى أى ديانة «تمنحنى السلطة» فإنه يقول: «دع ملكة الإنجليز تجمع أسطولاً.. وتحول مقر إمبراطوريتها من لندن إلى دلهى.. وفى نفس الوقت سوف أرتب الأمر مع محمد على. سوف يحصل هو على بغداد وميزوبوتاميا.. وسوف أتولى أنا أمر سوريا وآسيا الصغرى.. سوف نعترف بإمبراطورة الهند كعاهل لنا، وسوف نؤمن لها الساحل الشرقى. وإذا أرادت فيمكنها الحصول على الإسكندرية مثلما لديها مالطة الآن. هذا الأمر يمكن ترتيبه، إن ملكتك صغيرة....». وبالفعل قامت الملكة بذلك، وبعد ثلاثين عامًا أضاف مؤلف «تانكرد» رسميًا لقب «إمبراطورية الهند» للألقاب الأخرى للملكة.

تشتمل رواية «تانكرد» على تلميحات أخرى مدهشة عن المستقبل. ففيها شخصيتان ساخرتان تناقشان سياسات العالم:

يقول باريزى: لن يستريح پالمرستون قبل أن يحصل على أورشليم!
ويرد القنصل پاسكوا لايجو: يجب أن يكون للإنجليز أسواق.

باريزى: «عـدل جـدّا. . إننى أفكر شـخـصيّـا أن أعـمل بمجـال الأقطان».

بالطبع فإن «ديزرائيلى» كان يمزح ، أليس كذلك، وأيضًا يخبر أحد يهود أورشليم «تانكرد» قائلاً:

«لن يفعل الإنجليز ما فعله الأتراك مرة أخرى للاشيء. إنهم سوف يأخذون هذه المدينة، وسوف يحتفظون بها».

ربما لم يأخذ الشعب الإنجليزى رواية «تانكرد» على محمل الجدية، ولكن التاريخ فعل ذلك.

***